٣ ـ تحوّل أهل مصر والسودان إلى أمة عربية إسلامية

والآن وقد انتهينا من كل هـذه النواحى ، يمكن أن نعالج موضوع دخول القبائل العربية أرض السودان وانتشارها فى جهاته المختلفة باختصار ... ظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، وفتحت مصر فى أيام عمر بن الخطاب ، وتوالى الولاة عليها ، وأخذت القبائل المختلفة تهاجر الى مصر بانتظام واستمرار ... وإذا كانت القبائل العربية قد سكنت أول ما سكنت حواف الدلتا ، فانها لم تلبث أن انتشرت فى جهات القطر المختلفة ، وامتد توزيعها من الدلتا الى أقصى جنوب الصعيد ... وليس من شك فى أن الاتجاه الى ما وراء الحدود المصرية الجنوبية كان سياسة مقررة لولاة مصر وحكامها منـذ الفتح الاسلامى ، لكن كان لا بد من مرور وقت يكفى لتوطيد حكمهم فى مصر قبل أن يفكروا فى التوسـع الى خارج حدودها ، كما أن القبائل نفسها لم تكن بحاجة الى أن تترك مصر فى أول الفتح ، اذ كانت سبل الحياة ميسرة لها ، وكان لها بين السكان مركز ممتاز .

ثم مرت السنون ، ودخلت مصر فى العهد المملوكى ، وتغير الموقف بالنسبة للقبائل العربية ، فاستقر عدد منها بين سكان مصر الأصليين ، واندمجت جماعات كبيرة فى سكان الدلتا والصعيد ، لكن عددا كبيرا من القبائل ظل محتفظا ببداوته ، واستمر يعيش نفس العيشة التى تعودها فى بيئته الأصلية ، وفضلت قبائل كثيرة أن تبتعد عن قوة سلاطين المماليك المركزة فى الشـ ال ، وأن تتحرك بعيدا عنها فى الجنوب ، كما رأى المماليك أن الوقت قد حان لبسط نفوذ الإسلام خارج حدود مصر ، فلم يكن أمامهم إلا الأراضى الواقعة الى الجنوب منهم ، إذ كان الإسلام قد عم شمال افريقيا وامتد نفوذ المسلمين حتى المحيط الأطلسى ، وبهذا التقت وجهـة نظر سلاطين المماليك بوجهة نظر القبائل العربية البدوية ، التى كانت رغبتها قوية فى أن تتم رسالتها بنشر دعوة الإسلام وادخال غير المسلمين فى دين الله .

لكن كان هنالك عقبتان فى طريق هذا التوسع : أولاهما قبائل البجاه الحامية ، التى رأيناها تسكن الصحراء الى جنوب شرقى مصر والى شرقى السودان ، والثانية مملكة النوبة المسيحية التى كانت قائمة فى الجزء الشمالى من السودان . أما البجاه فلم يصمدوا للعرب ، وما لبثوا أن خضعوا لهم ، واختلطوا بهم ، وظهرت فيهم صفات العرب الجسمانية وبعض مميزاتهم الثقافية ، وهى صفات ومميزات برزت على مرور الوقت فى جماعات العبابدة خاصة ، لكنها قائمة بصورة مخففة فى البشاريين والهامندوة وبنى عامر والأمارار ... وأما المملكة المسيحية فى النوبة فقد رأيناها تتفكك تدريجيا أمام ضغط الإسلام وانتشاره الى أن سقطت نهائيا فى القرن الرابع عشر للمسيح ، حيث عمت العقيدة

الإسلامية هنالك ، واستقرت قبائل عربية كثيرة فى بلاد النوبة نفسها ، واختلطت الجماعات بعضها ببعض اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين عاما بعد عام .

وبسقوط هذه المملكة المسيحية تدخل علاقة مصر بالسودان فى دور جديد ، وتختلط الأصول والانساب اختلاطا يصل الى درجة الاندماج ، وتسرى دماء الشمال فى دماء سكان الجنوب ، سريانا سريعا لم يكن هنالك ما يوقفه أو يحد من شدته ، ونصبح وإذا العشائر والبطون فى السودان متفرعة عن العشائر والبطون التى استقرت فى الشمال ، واذا الأسر السودانية تتصل أنسابها بأولاد عمومتها وخئولتها فى صعيد مصر بوجه خاص .. ذلك لأن زوال مملكة النوبة المسيحية قضى على العقبة التى كان يمكن ان تعترض الإسلام والقبائل الإسلامية فى حركتها نحو الجنوب ، وهى عقبة طارئة لايسندها سند من العوامل الجغرافية ، ولا يساعدها مساعد من العوائق الطبيعية ، فقد رأينا أسباب الاتصال كلها قائمة بين شطرى الوادى منذ فجر التاريخ ، ورأينا أن التداخل والاندماج مما توحى بهما كل مقومات البيئة ، . . وكان أهم الشرايين التى سرى عن طريقها الدم العربى والثقافة الإسلامية الى أجزاء السودان المختلفة هى :

(ا) الطريق الذى كان يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكوروسكو ، قاطعا أرض البجاه ، ورابطا بين مصر والأقاليم السودانية المساحلة للبحر الأحمر ، وأهمية هذا الطريق أهمية محدودة إذا هى قيست بأهمية الطرق الأخرى فى (تعريب) السودان ، نظرا لما تتميز به أرض البجاه من فقر فى المرعى ، وقلة فى الماء ، ونظرا لأنها تبعد عن مجرى النيل الذى كان السكان يحاولون أن يقتربوا منه بقدر الامكان .

(ب) الطريق الذى كان يتتبع مجرى النهر ، وهذا هو الطريق الطبيعى الذى ربط بين مصر والسودان منذ أقدم الأزمنة ، واذا كانت بعض القبائل قد آثرت أن تستقر على جوانب النهر ، فان منها ما انتقل غربا بطريق وادى الكاب ونزل الأراضى المحيطة به .

(ج) الطريق الذى كان يبدأ من كورتى ، على طول وادى (مقدم) وعبر الدبة على طول وادى (الملك) الى كردفان ، حيث تتفرع الهجرات فى شكل المروحة ، فمنها ما يتحرك الى دارفور وما يتصل بها فى الغرب والجنوب ، ومنها ما يسير على جوانب النيل الأبيض وعبر صحراء (بيوضة) وأعلا العطبرة والنيل الأزرق فى اتجاه جنوبى شرقى الى حدود الحبشة .

وقد وجدت القبائل فى هذه البيئة الجديدة ما ذكرها ببيئتها الأولى ، بل لعلها وجدت فى غنى مراعيها ما لم تجده فى أراضى مصر من مراع كافية ، وكان انبساط سهول السودان ، وعدم وجود

معارضة تذكر من جانب القلة التى كانت تسكن السودان وقتئذ ، والتحمس لنشر الدعوة الإسلامية مما وسع نفوذ العرب بسرعة ، وأعطى معظم أقاليم السودان ذلك الطابع الذى ربطها بباقى العالم الإسلامى ، وجعل سكانها يتجهون اليه ، ويعقدون آمالهم عليه ، ويعتبرون أنفسهم جزءا لا يتجزأ من أراضيه .

ولكى نفهم انتشار العرب فى جهات السودان المختلفة ، وندرك صلة قبائله بالقبائل العربية التى تسكن مصر وتتوزع فى الدلتا والصعيد ، لابد من الإشارة الى أن العرب يقسمون تقسيما عاما الى مجموعتين رئيسيتين :

الأولى — مجموعة العرب الجنوبيين أو القحطانيين ، ومن هؤلاء بنو قضاعة (بلى ، بنو كلب ، جهينة) وطىء (جذام ، لخم ، الأزد ، الأوس ، الخزرج) ..... الخ .

الثانية — مجموعة العرب الشماليين أو العدنانيين ، ومنهم قيس عيلان وربيعة وكنانة (قريش بنو العباس ، بنو أمية) وسليم وهوازن ... الخ .

ويكفى أن نستعرض هنا تلك القبائل التى لها ما يمثلها الآن بين سكان السودان ، مشيرين الى سكناها فى مصر ثم حركتها الى الجنوب :

١ — بنو جذام : سكنوا شرق الدلتا منذ أيام الفتح الإسلامى لمصر حتى حوالى ١٤٠٠م ، ومن هؤلاء (بنو عقبة) الذين انفصلوا عن بقية الجذاميين ليلحقوا ببنى هلال فى شمال أفريقيا ، ثم هم يظهرون فى فترة متأخرة فى السودان ، إذ هم يمثلون فى جماعات (الكبابيش) الذين يسكنون الإقليم الواقع شمال كردفان .

٢ — بنو طىء : هبطوا مصر بعد الفتح بحوالى قرنين أو ثلاثة قرون ، وسكنوا جهات الدلتا المختلفة حيث لحق بهم عدد كبير من أهليهم ، ومن بنى طىء (ثعلبة) الذين يمثلون تمثيلا واضحا جدا بين (البقارة) وهم رعاة الماشية فى السودان .

٣ — جهينة : هذه هى أكبر القبائل تمثيلا فى السودان ، واليهم ينتسب أكثر من نصف القبائل العربية فيه ، وعرب جهينة أتوا أصلا من الحجاز ، ودخلوا مصر مع الفتح ، وقد اشتركوا مع غيرهم من العرب فى غزو بلاد البجاه فى حوالى منتصف القرن التاسع ، وقد انتقلت غالبية جهينة الى الصعيد ، ثم اشتركوا فى إسقاط مملكة النوبة المسيحية ، وزحفوا على انقاضها الى كردفان ودارفور ، كما تحركوا جنوبا متتبعين مجرى النيل وروافده تجاه الحبشة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

٤ — كنانة وقريش : ومن هؤلاء بنو أمية وبنو العباس ، مواطنهم فى الجزيرة العربية تهامة والحجاز ، وقد وصلت أعداد كبيرة منهم الى مصر مع الفتح ، وكانوا ممثلين تمثيلا قويا فى الصعيد فى القرن الخامس عشر الى جانب عرب جهينة. وفى السودان الآن قبائل كثيرة من كنانة يملكون الماشية غالبا ، وأكثر القبائل التى تعيش على جانبى النيل فى شمال السودان تنتسب الى بنى العباس ، ومن الكتاب من يرى أن عربا من بنى أمية قد عبروا البحر الأحمر ونزلوا مباشرة فى أرض السودان فى القرن الثامن ، وربما كان (للفنج) صلة بهؤلاء ، إذ أن العرف يجرى بين (الفنج) بأنهم أمويون منسبون .

٥ — فزارة : كانوا ينزلون حول مكة فى الجزيرة العربية ، ثم هاجروا إلى مصر فى فترات متباعدة ، فمنهم من جاء مع الفتح ، ومنهم من جاء فى القرن الحادى عشر مع بنى هلال ، وإلى فزارة ينتسب معظم رعاة الإبل فى غرب النيل الأبيض .

٦ — ربيعة : وصلت غالبيتهم إلى مصر فى منتصف القرن التاسع ، وقد اندفعوا بسرعة إلى الجنوب ، وانضموا إلى جهينة فى حملاتهم ضد البجاه ... وقد استقرت ربيعه على حدود النوبة شمال أسوان ، واختلطوا دون شك بالنوبيين ، وإليهم ينتسب بنو كنز (الكنوز) الذين يسكنون وادى النيل فيما بين حلفا وأسوان . (يجد القارئ تفاصيل هذا فى كتاب البيان والاعراب للمقريزى ، وفى كتاب تاريخ العرب فى السودان لما كما يكل) .

فإذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التى وصلت إلى السودان رأسا ، عبر البحر الأحمر — سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم فى زمن التوسع الإسلامى ، أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل (الرشايدة) إلى حيث ينزلون الآن فى الشمال الشرقى للسودان — فان "تعريب" السودان فى الواقع إنما تم عن طريق مصر ، إذ لا يسجل التاريخ — فى أى عهد من عهوده — وصول موجات هامة أو هجرات عنيفة إلى السودان عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب ، وهذه الحقيقة فى ذاتها تبين بجلاء كيف يرتبط سكان معظم السودان فى تاريخهم الحديث بسكان مصر بروابط دموية قوية ، يمكن أن تتخذ خطوة قوية مكملة لما رأيناه من ارتباط فى الأصول الجنسية القديمة . ولو أن " تعريب " السودان قد تم عن طريق الشرق مثلا ، وكانت القبائل قد جاءت عبر البحر الأحمر و باب المندب ، إذن لكان لتوجيه السودان وعلاقته الاثنوجرافية بمصر قصة أخرى ، تفيد دعاة الانفصال ، الذين لا يمكن أن يجدوا لدعواهم سندا إذا أخذت هذه الحقائق الثابتة فى الحسبان .

ويصح أن نشير — قبل أن ننتهى من هذه النقطة من البحث — إلى أنه من المحتمل أن بعض القبائل العربية قد وصلت إلى غرب السودان من شمال أفريقيا ، متتبعة الطرق التى كانت تسلكها القوافل وهى تقطع الصحراء الليبية شمالا وجنوبا ، وربما وصل إلى أرض دارفور قبائل

عن هذا الطريق ، وكان لهم أثر فى صبغ هذا الإقليم بالصبغة العربية ، فاذا تحقق هذا كان لبعض الأساطير السائدة بين سكان هـذه المنطقة عن أصولهم وأنسابهم أساس من الحقيقة ، فالتقاليد السودانية يجمع على ربط سلاطين دارفور بأصل عربى من سلالة بنى العباس ، الذين جاءوا من شمال أفريقيا ، وكانوا قد هاجروا إليها بعد سقوط بغداد ، وتفرقوا فيها بعد ذلك إلى جهات أفريقيا المختلفة ... وعامة أهل دارفور يرجعون أنسابهم إلى الهلاليين الذين اشتهروا فى تونس بعـد هجرة تلك القبائل إليها ... وأيًّا كان الأمر فان ذلك لا يغير من الحقيقة السابقة فى شئ ، ولا يشكك فى أن "تعريب" السودان إنما تم عن طريق هجرات القبائل العربية من الشمال ، متبعة فى معظم الأحوال مجرى النيل .

وسيبقى علينا بعد ذلك أن نؤكد صعوبة تحديد مدى انتشار العرب فى أرجاء السودان ، ذلك لأن الدراسة الانثروبولوجية لسكان هـذا الشطر من حوض النيل دراسة ناقصة ، وكل ما يقال عن التمييز بين الجماعات المختلفة إنما يستند غالبا على تلك الصفات الظاهرية التى لا يمكن الاعتماد كثيرا عليها ، وعلى لون البشرة بصفة خاصة ، مع أن هـذا المقياس أضعف المقاييس التى يمكن الأخذ بها فى دراسة الأجناس . وإذا اتخذ توزيع القبائل العربية أساسا ، فالعرب إذن يسكنون غالبية الجزء الواقع شرق مجرى النيل فيما عدا منطقة البجاه (ولو أن البجاه لم يخلصوا من أثر العرب) من حدود السودان الشمالية حتى جنوب النيل الأزرق ، كما يتوزعون على جانبى النهر من الشمال حتى جنوب (جبلين) ، أما فى غربى النيل فلهم معظم الأراضى حتى أعالى بحر الغزال ... لكن ماذا فى الإقليم الانتقالى إلى أعالى النيل ؟ ؟

لقد أشرنا الى أن الظروف الطبيعية تقتضى التدرج وتستوجب التداخل ، وإذن فما من شك فى أن الأثر العربى فى الناحية الجنسية قـد وصل بدرجات متفاوتة الى أرض (النيلوتيين) ، كما أنه ليس من شك فى أن عملية " التعريب " لهذا الاقليم الذى لم يعرب كله بعد كانت مستمرة ، وكان من المنتظر أن يتم فى الجنوب شىء مما تم فى الشمال ، لولا حالة الفوضى التى انتشرت فى السودان قبل الفتح المصرى فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولولا تلك السياسة الانجليزية التى تحول بشدة دون وصول المؤثرات العربية الى الجنوب ، ولو أن هذه السياسة التعسفية قد انتهت ، وتركت الأمور تجرى طبيعية فى السودان لوصلت القبائل والجماعات العربية الى قلب إقليم (النيلوتيين) ، ولضاقت الهوة الجنسية والثقافية التى تفصل بين أقلية من سكان السودان و بين غالبية سكانه ، وكان فى هـذا صالح الجنوب قبل مصلحة أهل الشمال .. ولن يكون هنالك ما يقف فى سبيل هجرة الجماعات الشمالية ، إذ أنها ستنتقل الى بيئات نظامها الاقتصادى يقوم على الرعى وهو نفس النظام الذى يعيش عليه غالبية القبائل الشمالية الى الآن .

على أنه رغم انتشار الإسلام فى السودان ، وتعمير كثير من القبائل العربية لأقاليمه المختلفة ، فقـد ظلت شخصيته — حتى الفتح المصرى — مفقودة ، ولم يكن هنالك فى الواقع اسم واحد

يمكن أن نطلقه على كل أقاليمه ، فنظام العرب نظام قبلى يشجع الانفصالية والانعزال ، ودخول الاسلام فى السودان لم يتم بطريق الفتح المنظم الذى كان يعتمد على سلطة مركزية تفرض قوتها وسلطانها على السكان ، وإنما تم على أيدى قبائل مختلفة وفى فترات متعددة ، وكان هم كل قبيلة أو مجموعة من القبائل أن تبسط سلطانها على إقليم معين ، تنفرد به وتعيش فيه ، وما يعنيها بعد هذا أن تتحد مع غيرها من القبائل ، أو تبذل مجهودا مشتركا لتنظيم حكم البلاد .

ومن هنا كان هذا التفكك الذى تميز السودان به حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تلك الإمارات والسلطنات المتعددة ، التى يكفى أن نشير هنا الى أهمها إشارة سريعة ، لنكمل الصورة ولنرى كيف أن السودان مدين فى الواقع — بوجوده كوحدة لها كيان ولها شخصية — الى الفتح المصرى الذى تم على يد عاهل مصر الكبير[1] :

أولا — مملكة سنار — وكانت تمتد من الشلال الثالث الى أقصى جبال فازوغلى ، ومن سواكن على البحر الأحمر الى النيل الأبيض ، وكانت مملكة سنار مقسمة الى عدة ممالك ومشيخات ، وكان لكل ملك أو شيخ استقلاله ما دام يدفع الجزية المقررة لملوك سنار ، وقد تقسمت هذه المملكة قسمين ، قسم تابع للفنج هو الذى كان يقع جنوب بلدة (أربجى) قرب المسلمية ، وقسم يقع شمال هذه البلدة تابع لمشيخة قرى الخاضعة لسلطان الفنج .

ثانيا — مشيخة العابدلاب — وهى التى كان مركزها بلدة (قرى) ثم انتقلت إلى الحلفاية فعرفت بمشيخة الحلفاية ، وقد امتدت من حجر العسل الى سوبة ، وكان لها السلطة على جميع الأراضى من اربجى الى الشلال الثالث .

ثالثا — الممالك والمشيخات التى خضعت رأسا لملوك الفنج :

١ — مشيخة خشم البحر : قامت شرقى النيل الأزرق بين رنقة والرصيرص ، وكان مركزها (رنقة) ، وقد عرفت ببلاد خشم البحر أو فم البحر لأن بحر النيل لا يصلح منها جنوبا .

٢ — مملكة فازوغلى : قامت جنوب مشيخة خشم البحر ، وامتدت من الرصيرص إلى قداسى وكانت عاصمتها (فازوغلى) .

٣ — مشيخة الحمدة : قامت على نهر الدندر ومركزها دبركى .

٤ — مملكة بنى عامر : قامت فى الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور بركة شرقا وغربا ، وبين عقيق على البحر الأحمر وبلاد الحبشة شمالا وجنوبا .

٥ — مملكة الحلانقة : نسبة إلى قبيلة الحلانقة — وهى من البجاه — ومركزها جبل كسلا على نهر الجاش .

---

(١) اعتمدنا فى الكلام على مشيخات السودان وسلطناته — قبل الفتح المصرى فى القرن التاسع عشر — على كتاب تاريخ السودان ، لنعوم بك شقير .

رابعا — الممالك والمشيخات التى خضعت للفتح بواسطة العابدلاب :

١ — مشيخة الشنابلة : قامت على النيل الأزرق شمال سنار ومركزها المسلمية .

٢ — مملكة الجعليين : قامت شمال مشيخة العابدلاب على انقاض مملكة (مروى) القديمة ، بين حجر العسل والدامر ، وكان مركزها (شندى)، وكانت مملكة قوية تولاها ملوك الجعليين ، وكانت شندى قبل الفتح الإسلامى مركزا من أهم مراكز التجارة فى السودان .

٣ — مملكة الميروفاب : شمال مملكة الجعليين ، بين المقرن ووادى السنقير ومركزها بربر ، وكان لها ككروطاقية .

٤ — مملكة الرباطاب : امتدت من السنقير الى الشاخية فيما وراء أبو حمد ، وكانت تتنازع ككروطاقية مع الميروفاب .

٥ — مشيخة المناصير : امتدت من الشاخية الى الشلال الرابع وكان مركزها السلامات .

٦ — مملكة الشايقية : التى قامت على أطلال مملكة نبتة القديمة ، وقد امتدت أراضيها من الشلال الرابع الى أبى دوم قشابى ، وكان مركزها مروى ، وهى مملكة عربية بحتة ، قام شمالها مملكة الدقار ودنقلة والخندق وارقو ، وكانت كلها ممالك نوبية أو نوبية متأثرة بالعرب . وكانت مملكة ارقو هى أقصى الممالك التى امتد اليها نفوذ الفنج شمالا ، أما البلاد بينها و بين الشلال الأول فقد تولاها الكُشّاف الأتراك فى سكوت والمحس .

خامسا — سلطنة دارفور — ويظهر أنها كانت مقسمة قبل وصول العرب اليها الى عدة سلطنات فى جملتها سلطنة الفور فى جبل مرة ، وقد استمر النفوذ لسلاطين الفور حتى ١٨٧٥ ، حين استولت مصر على بلادها وضمتها الى أراضيها فى السودان .

ولعل من المهم أن نشير الى أن سلطان الفور كان يمتد عند الفتح المصرى فيشمل كردفان ، التى كانت تحكم بحكام يعينون من قبل سلطان دارفور ، وربما كان هذا من الأسباب التى سهلت سقوط كردفان بعد دخول جيش محمد على مدينة الأبيض تحت قيادة محمد الدفتردار عام ١٨٢١ .

هكذا كان السودان مقسما الى ممالكه وسلطناته ، وكانت وحدة سكانه منعدمة ، لا تجمع جهود أهله سلطة مركزية ، ولا تنظم شؤونه حكومة موحدة قوية ، بل كان الأمر أمر مشاحنات وعداء ، وكانت المطامع الشخصية والمنافسات المحلية والمطامع العاجلة هى الطابع الذى يسود كل ربوع السودان فيؤخر تقدمه ، ويعطل استغلاله ، ويشيع فى أقاليمه هذه الفوضى التى كانت الرغبة فى القضاء عليها دافعا من الدوافع التى حفزت مصر الى أن تتجه فى فتوحاتها ناحية الجنوب ، وكان من نتيجة هذا بعث السودان كوحدة تضم — الى جانب تلك الإمارات والشياخات الشمالية — مديريات الجنوب وجماعات أعالى النيل التى تدخل بحكم موقعها وتوجيهها ضمن حدود السودان .

عباس عمار